معظم المؤلفات العلمية الكبرى في أوروبا، قد وضعها أساتذة جامعيون، ويكفي أن نستعرض أمهات الكتب في العلوم الإنسانية والطبيعية منذ ابتداء عصر النهضة في أوروبا، لنعلم أن مؤلفيها هم من أساتذة الجامعات. إن الكتب الجامعية العربية هي على عكس ذلك، كتب لا تتعدى كونها كتباً مدرسية لا أثر فيها مطلقاً للإبداع أو البحث العلمي»(٥٦).

إن رسالة الجامعات، كما سبق أن ألمحت، رسالة ضخمة، ومسؤولياتها مسؤوليات جسيمة؛ فهي، ببساطة في التعبير، مسؤولة عن النهوض بالأمة العربية، والسفر بها طويلاً إلى مصاف الأمم المتقدمة. وبهذا القول، لا أحمل الجامعات العربية شيئاً فوق طاقتها، ولا ألقي بالقول جزافاً وعلى عواهنه، فقد سبق أن قامت مؤسسات التعليم العالي العربية القديمة في العصر العباسي – وهي المؤسسات المتواضعة التي لم تكن تسمي نفسها جامعات لأنها كانت عبارة عن حلقات مفتوحة في مساجد أو مكتبات كدار الحكمة أو حتى حوانيت وراقين – أقول إنها قامت بنجاح باهر بمثل هذا الدور الذي نطلبه اليوم في الربع الأخير من القرن العشرين من جامعاتنا العربية التي تعيش في عصر التكنولوجيا. وكيف بدأت تلك المؤسسات القديمة مهمتها؟ لقد بدأتها بالترجمة والتعريب عن الفارسية، واليونانية واللاتينية، والهندية، ثم استوعبت ما نقلت، وبدأت تبني عليه، وتجدد فيه، وتضيف إليه، ثم دخلت مرحلة الخلق والإبداع، فتركت لنا، نحن العرب خاصة، هذا التراث الرائع العظيم، الذي طالما أسأنا إليه بالاكتفاء بالتباهي به، وبالوقوف طويلاً أمام ضريحه، لتمجيده، والهتاف باسمه، والتصفيق له.

وما أشبه اليوم بالأمس! أفلا تستطيع الجامعات العربية أن تبدأ بالترجمة والتعريب، تمهيداً للاستيعاب والتجديد والبناء، ثم وصولاً للخلق والإبداع؟ إن هنالك تحركاً عربياً في هذا الاتجاه، يضع هذه المسؤولية على عاتق الجامعات العربية وأساتذتها، ويعقد مؤتمراً عربياً عاماً للتعريب كل سنة، يناقش فيه دراسات وقضايا خاصة بالتعريب وبمشاكله. وقد أتيحت لي الفرصة فمثلت جامعة بير زيت قبل سنتين في مؤتمر التعريب الذي عقد في بغداد. وأشهد أن العمل جاد، وأن القافلة بدأت تسير، لكنَّ ما يؤخذ على هذه المسيرة بمجموعها، أنها حركة مبدوءة «من فوق» ولابأس في ذلك مرحلياً، شريطة ألا يتكرس مثل هذا الوضع، فيظل حافز المسيرة فوقياً، فتتوقف إذا توقفت السلطة الفوقية، أو تتغير إذا تغيرت. إنني أنادي بوجوب أن تترسخ مسيرة التعريب في قواعد الجامعات العربية؛ بحيث تصبح الجامعة، بأساتذتها وطلبتها، كخلية النحل، شغلها الشاغل هو التعريب بهذا المعنى الواسع: ترجمة نقل، استيعاب، إضافة، بناء، تجديد وتطوير، خلق وإبداع. ولا يفوتني، بهذه المناسبة، أن أؤكد كل التأكيد، على وجوب العناية بالأبحاث والدراسات الفكرية والعلمية الجادة، التي هي العروة الوثقى بين الجامعة والمجتمع، والتي تبقى الجامعة دونها عبارة عن مدرسة ثانوية كبيرة، أو مركز امتحانات يلقّن الطلبة، ويقيس ذاكراتهم، ويعطيهم الشهادات، أو جوازات الدخول للوظائف. إن جامعاتنا لا يجوز أن تظل على ما هي عليه في هذا الخصوص، وحتى تتغير نحو الأفضل، وحتى تصبح مؤهلة للقيام بالأبحاث التي تترقى بها، وبالمجتمع، وبالأمة، فلا بد أن تغير